دراسات

مبدأ المودّة في المفهوم القرآني

آية الله السيّد محمود الهاشمي الشّاهرودي*

تمهيد

يقول الله تعالى: ﴿قُل لا أَسْـأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْـرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِـي الْقُرْبَى﴾ [الشورى / ٢٣].

وقعت هذه الآية مثاراً للبحث والمناقشة عند المفسِّرين، وقد لوحظ عليها أنها ربما تكون منافيةً لظاهر بعض الآيات الأخرى التي تقول﴿لا أَسْأَلُكـمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾[الأنعام/٩٠]، حيث تنفي المجموعة الثانية من الآيات أن يكون للنبي ﷺ أجر على الرسالة، بل لقد ادّعى بعضهم أنها منسوخةٌ بتلك الآيات التي تنفي مطلق الأجر.

إن هذه الآيـة المباركة في ما يفهمه الإنسان العرفي واللغوي الاعتيادي منها، لا تناسب مقام النبوّة، إذ كيف يطلب النبي ﷺ وهو في قمّة الإخـلاص والفناء في الله سبحانه وتعالى، على رسالته وتبليغه أجـراً هو المـودّة في قرباه؟! الأمر الذي قد يعطي نوعاً من الاهتمام بالأهل والعشيرة ونحو ذلـك، وهـي أمـورٌ نعلم أن النبي ﷺ أبعد الناس عنها، وعن السعي لتحقيق مكاسب من قبيلها.

الاتجاهات في تفسير آية المودّة

ومن هنا اتجه بعض المفسِّرين إلى تفسير الآية وتأويلها بشكل آخر:

أ - فقد فسَّروها، تارةً، بأن المقصود من المودّة في القربى التودّد في القرب إلى الله سبحانه وتعالى، وهذا معناه أنّ كلمة القربى هنا تعني التقرّب إلى الله سبحانه، وعليه يغدو معنى الآية:

- لا أسألكم عليه أجراً إلاّ أن تتودّدوا في ما يقرّب إلى الله تعالى وتلحّوا في الدنوّ منه[1].

ب - وفسَّروها، تارة أخرى، بأن هذا الخطاب كان موّجهاً إلى المشركين القرشيِّين الذين

* رئيس السلطة القضائية وأحد أبرز الفقهاء في إيران

كانوا معارضين للنبيﷺ في مكّة، وسورة الشورى من السور المكّية، فكأن الآية خطاب لهؤلاء بالقول: لا أسألكم عليه من أجر إلاّ أن تحفظوا قرابتي منكم، فلا تكون الآية على هذا خطاباً للمؤمنين بل هي خطاب للمشركين[٢].

هذا، وقد ذكرت تفسيرات أخرى نعرض عنها، فعلاً، رجاءً للاختصار، وقد استوعبتها الكتب الكلامية والتفسيرية بالبحث والنقد، وردّ عليها العلماء بما لا مزيد عليه.

وقفة نقديّة مع بعض التّفاسير

ومن الواضح أنّ هذه التفاسير تخالف الظاهر القرآني:

أما التفسير الأوّل فيناقش:

أولاً: إن كلمة القربى غير مستعملة في اللغة العربية بمعنى التقرّب إلى الله، وإنما استعملت فقط بمعنى الأقرباء، فلو راجعنا المعاجم اللغوية لما وجدنا لهذا التفسير فيها لكلمة القربة من عين ولا أثر[٣].

ثانياً: إنّ سياق الآية سياق الأجر، فلا معنى لتفسيرها بالتقرّب إلى الله، لأن هذا ليس أجراً بحسب الحقيقة، بل الذي يؤدّي للتقرب إلى الله، سبحانه وتعالى، هو الرسالة نفسها وأحكامها، وعليه فلا يمكن أن يكون الأجر هو المأجور عليه نفسه.

أمّا التفسير الثاني الذي كان يتبنّى افتراض أنّ الآية تخاطب قريشاً فهو تفسير ركيك إذ:

أولاً: من الناحية التاريخية، هذا الافتراض غير صحيح، لأن هذه الآية بالذات من الآيات المدنية التي نزلت في أواخر الأيام في المدينة إبّان وجود النبيﷺ فيها، نعم أكثر آيات سورة الشورى آيات مكية، إلاّ أن هذه الآية بالذات عدّها الكثير من المؤرّخين والقراء من الآيات المدنية، ولا تنافي بين أن تكون السورة في نفسها مكية في ما تكون بعض آياتها مدنية، وهذا ما حصل في الكثير من السور القرآنية، فلتراجع كتب التفاسير المتخصّصة بهذا الشأن[٤].

ثانياً: لا معنى لمخاطبة النبيﷺ قريشاً، وهم غير مؤمنين برسالته، فيطلب منهم أجراً، إن هؤلاء الذين كانوا أعداء النبيﷺ، يعارضونه ويمنعونه لا معنى لأن يقال لهم: لا أسألكم عليه من أجر إلاّ المودّة في القربى.

فهذه التفاسير للآية في الواقع ليست سوى محاولات يسعى إليها بعض من لا يروق له تفسيرها الصحيح، وذلك بإبعادها عن المعنى الحقيقي الظاهري، سيما إذا لاحظنا أن الروايات

الواردة في كتب الفريقين - السنّة والشيعة - معاً في تفسير هذه الآية أو منفصلةً عنها لعلّها متواترة[٥]، بحيث لا يمكن الخدش والمناقشة فيها، فالروايات الواردة كثيرة والمحاججات التي وقعت بين الأئمة وبين بعض المخالفين، نظير قضية الإمام زين العابدين عليه السلام في الشام عندما يقول لذلك الشامي: هل قرأت القرآن؟ يقول: نعم، فيتلو عليه الإمام هذه الآية ويقول: نحن القربى[٦].

إن هذه المحاورات وأمثالها كثيرة في حياة الأئمة، وهذه أيضاً من الأمور المسلّم بها، فمجموع الروايات الواردة والفهم الذي كان يستدل به الإمام عليه السلام شاهدان على ما ندّعيه، إذ لو لم تكن لهذه الآية مثل هذه الدلالة كيف يستطيع الإمام عليه السلام مخاصمة خصمه بها والاحتجاج عليه؟! ومعنى ذلك أن الطرف الآخر كان يفهم من الآية هذا المعنى لا التقرّب إلى الله تعالى، فهذه في الواقع تمحّلات وتعسّفات ليس إلاّ.

التفسير الصحيح للآية

ومعنى الآية: المودّة في قربى النبيّ، أي لا أسألكم أجراً على الرسالة التي عملت على تبليغها إلاّ أن تحفظوا مودّتكم لقرباي، يعني أقرباء النبي.

هذا، وقد فسّر النبي صلى الله عليه وآله بنفسه القربى أيضاً بروايات كثيرة واردة عنه، ويطلق هذا العنوان على أصحاب الكساء الخمسة، أي على الأئمة المعصومين، وهو ما ورد أيضاً في روايات الطرفين، إذن فلا ينبغي النقاش في أن ظاهر الآية وسياقها يدلان تاريخياً، على هذا المعنى، وهذا هو الذي يناسب أن يكون أجراً على الصدع بالرسالة كما تؤكّده الروايات أيضاً، وهي روايات واردة من قبل الشيعة والسنة، يعزّزها تاريخ تعامل الأئمة في مجتمع المسلمين وفي محاججاتهم مع الأشخاص المخالفين أيضاً، حيث يدل على أن هذا المعنى هو الظاهر والمتفاهم عليه من قبل عامة المسلمين وعلمائهم في ذلك الزمن، ولم يرد من أحد منهم في هذه المباحثات والمحاورات الإشكال في أن هذه الآية ليس معناها ذلك، بل كانوا يسلّمون بمعناها هذا.

أما ما قيل، أو يقال، من أن هذا لا يناسب النبي صلى الله عليه وآله ومقامه ومنزلته فهو واضح الجواب باعتبار أن هذا الأجر في الواقع، وإن كان بحسب الظاهر والصورة أجراً للنبي، حيث إن القربى قرباه، إلاّ أنه أجرٌ يعود في واقعه على المستأجر لا على المأجور، على الطرف الآخر الذي يريد أن يدفع هذا الأجر، لأن المقصود من التودّد للقربى ليس تعظيم الجانب العشائري للنبي صلى الله عليه وآله، سيما

لو لاحظنا أنه ﷺ كانت له قرابة مع كلّ بطن من بطون قريش كما ورد في بعض التواريخ.

لقد كان النبي ﷺ من أسرة عريقة واسعة العلاقات والارتباطات، ذات قرابة مع أكثر الطوائف، ولم يلتفت النبي ﷺ إليهم أصلاً، وقد ورد في ذمّ كثير من من أعمامه أو بني أعمامه آيات وأحاديث.

قال تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ * وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾.

إذن فهذه الشبهة مندفعة موضوعاً، لأنها إنما تتسنّى لو كان المقصود واقعاً تثبيت الأرحام والأقرباء، بينما ليس هذا هو المقصود، وإنما تثبيت خصوص أناس معينين، وهم من عبّرت عنهم الآية المباركة بأهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ الأحزاب/٣٣.

فهذه المحبة للقربى ليست لكونهم قربى فحسب، وإلاّ فعمّ النبي ﷺ كان أيضاً قريباً له، وابن عباس كان كذلك وزوجات النبي ﷺ أيضاً.

بل لقد ثار النبي ﷺ ضد هذه الأعراف والتقاليد التي كانت في المجتمعات الجاهلية القديمة والحديثة معاً بمختلف الأشكال والصور، كما كان هناك - ومنذ البداية - رفض تام لهذه القضايا وشجب عنيفٌ لها، وجعل المبدأ والعقيدة والتقرب إلى الله تعالى والالتزام بطاعته هو الأساس البديل، والتقوى هي الميزان في كرامة الإنسان وفي القرب والبعد، حتى جعل سلمان الفارسي الأصل محمدياً ليصفه ﷺ بقوله: "**سلمان منّا أهل البيت**"(٧).

ويؤكّد ما قلناه أنه عندما نزلت هذه الآية لم يقع المسلمون في التناقض بينها وبين تلك التربية والمبادئ التي عهدوها، ولم يستشكلوا على النبي! كيف تطلب أجراً على رسالتك، وهو تعظيم أقربائك وتقديرهم؟! كما أن الروايات الواردة في التواريخ العامة والخاصة تؤكّد أن النبي كان حريصاً على الدوام لتخصيص هذا العنوان [عنوان القربى وعنوان أهل البيت] بأهل البيت(عليهم السلام) يعني بفاطمة الزهراء والإمام علي بن أبي طالب والحسنين عليهم السلام، وكأنه صار علماً لهم، فكما يقولون في علم أصول الفقه: "الحقيقة الشرعية" صار هذا "**حقيقة نبوية**".

ونتيجة لما أسلفناه نرى أن هذه الآية تدل على أن أجر الرسالة إنما هو مودّة أهل البيت ومحبّتهم، وهو ما يعود الخير فيه على الناس أنفسهم بازدياد ارتباطهم بالنبي ورسالته، وعليه، فصورته أجر وواقعه ليس بأجر.

لماذا عبّرت الآية بالأجر؟!

وإنما عبّرت الآية بالأجر لعنصرين:

الأوّل: إنهم قربى النبيﷺ، فمن المناسب أدبياً ولفظياً أن يصطلح على مودّتهم بكلمة "أجر"، وإلاّ فهو واقعاً ليس أجراً.

ومن هنا نعرف أنه لا منافاة بين هذه الآية وبين الآيات التي تقول: لا أسألكم عليه أجراً، لأن الأخيرة تريد أن تقول: أنا بلّغت رسالة ربي، وقمت بواجبي، ولا أسألكم عليه أجراً. إن أجري إلاّ على الله كما في آية أخرى. فالمنفي فيها الأجر الحقيقي، بينما المنفي هنا هو الأجر اللفظي فقط، وذلك بمناسبة لفظية.

الثاني: إن هذا الفعل، أي محبة القربى، إنما هو بحسب صورته وظاهره من فعل الناس والمجتمع تجاه النبيﷺ وأهل بيته، بل قد يكلّف الناس ثمناً باهظاً، كما كلّفت مودة القربى المسلمين والمؤمنين ثمناً باهظاً، فقد كلّفتهم حياتهم، كما كلّفت أصحاب الأئمة والمحبّين لهم كثيراً، فلعلّ القرآن الكريم أسماه أجراً لأن الله سبحانه وتعالى يعلم أنّ هذه المودة تكلّف هؤلاء ثمناً باهظاً، فالمسألة سوف تتطوّر وتدخل في ما دخلت فيه، وسوف تكلّف من يريد التودّد إلى الأئمة أثماناً وأثماناً.

إذن، فمودة القربى، وإن كانت تعود على الأمة بالفائدة، إلاّ أنها حيث اختلطت بالجهد والنَصَب والتضحية، جاء التعبير عنها بأجر الرسالة أو الرسول. فأنت تجعل أجر الرسالة تحمّل المسيرة إلى النهاية، بأن تودّ القربى وتحبّهم وتتعلّق بالأئمة، وسمّي أجراً لأنه سوف يكلّفك نصباً وعناءً وجهداً، وبذل الدم والمال.

إذن، فالآية دالة على النظرية القرآنية الإسلامية التي تعد من أصول معتقداتنا نحن الشيعة، وهي أنه لابد من مودّة قربى النبيﷺ، لا بمعنى مطلق القريب الذي له رحمية أو صلة بسبب أو نسب معهﷺ، بل خصوص أهل البيت : كما طبّق النبيﷺ مصداق القربى ومصداق أهل البيت في هؤلاء.

معطيات مبدأ المودّة

وبعد تحديد هذا المبدأ وإثباته في الجملة، ينبغي التعرّض لجوانب أخرى وأبعاد جديدة له،

فمثلاً: ما هو مضمون هذا المبدأ؟ وما هي معطياته؟ ولماذا هذه المودَّة في القربى؟ وماذا تتضمن من معانٍ وأبعاد؟

هذا هو السؤال المهم فعلاً.

المعطى الأوّل: أول معطى من معطيات هذا الأصل هو تثبيت الإمامة، ولهذا يمكن أن تجعل هذه الآية دليلاً على إمامة أهل البيت : باعتبار حصرها المودّة الواجبة بالقربى بسبب الاستثناء الحاصر فيها.

وهنا نلاحظ أن الآية لم تقل: إلاّ المودة للقربى، بل قالت: إلاّ المودة في القربى، وهذا التبديل، أي تبديل اللام بفي، كان بغية الشعور بأن هذه المودة لكم وليست لهم، فليست المودة لهم بل لكم، أي أن فوائدها ونتائجها لكم، ولكنها فيهم فهم محلها، هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى، تشعر الآية بالحصر، أي أن المودة لابد من أن يكون محلّها وموطنها القربى وليس أيّ مكانٍ آخر، ومن الواضح أن المحبة والمودة إذا أصبحت من الواجبات فسوف يدلّ ذلك بالالتزام على أن هؤلاء لهم منـزلة خاصة ويتمتعون بمقام الولاية على الأمّة، لأن الشريعة - بحسب نص القرآن الكريم ـ، توجب المودّة فيهم وتجعله أجراً على الرسالة. فهذه المودّة لا يمكن إلاّ أن تكون متعلّقة من له مقام رفيع ومنـزلة كبيرة كمقام النبوّة، فتتشكّل دلالة التزاميّة عرفية بيّنة وواضحة على أن هؤلاء الذين أمرت الآية الكريمة بمودّتهم وحصرتها فيهم لهم مقام كمقام النبوّة، فتدل بالدلالة الالتزامية على أن منـزلتهم منـزلة قادة الرسالة وحماتها، وهذه هي الإمامة.

وعليه، فالصحيح هو إمكانية الاستدلال بالآية -كما فعل بعض علماء الشيعة - على مبدأ الإمامة والولاية والخلافة لأهل البيت :[٨]، وأنا أجد أن هذه الدلالة واضحة وبيّنة في هذه الآية الكريمة.

المعطى الثاني: إن هذه الآية تدل - بالإضافة إلى مبدأ الولاية والإمامة - على أنّ المودّة لها أهميتها الخاصة، فنحن نؤمن بالخلافة والإمامة والحكم لهم : حقاً من الله ونصّاً منه، لكنّ هذه الآية تريد أن تتخطّى هذا المقدار لتؤكّد على الحب والمودّة علاوة على الطاعة والانقياد و... وهذا المعطى الجديد لـه آثاره الخاصة وأبعاده التربوية والثقافية والاجتماعية المختلفة، ولولا هذا البعد الجديد لبقي المعطى الأوّل نظرياً غير قابل للتجسّد في الواقع، فهو ضروري لحفظ البعد الأول نفسه.

إذن، فأصل مبدأ محبة أهل البيت : مما يُقطع به تاريخياً، وقامت عليه سيرة النبيّ ﷺ على

مرأى ومسمع من المسلمين جميعاً، ولا يخالف أحد في ذلك، حتى المخالفين للشيعة في الرأي والعقيدة لا ينفون أصل ثبوت المحبة والولاء لأهل البيت :، فإن علماءهم وفقهاءهم وكتبهم جميعها تشير إلى ذلك بشكل أو بآخر، وينسب إلى الشافعي (٢٠٤هـ) شعره المشهور الذي يؤكّد هذا الأمر.

مبدأ المودّة بين البعد العاطفي والمضمون القيادي

وهنا قد تسأل: حينئذ إذا كان هذا المبدأ مسلّماً به أو ثابتاً بالكتاب الكريم والسنة الشريفة والإجماع وسيرة النبي ومواقفهﷺ، إذن فأي خلاف واقع بين الفريقين المسلمين؟! وما هو محل هذا الخلاف؟

في الواقع، الخلاف بين الفريقين - الشيعة والسنة - ليس في أصل هذا المبدأ، وإنما في كيفية فهمه، فقد وقع تشويش نتيجة القضايا والبلايا التي امتحنت بها التجربة الإسلامية بعد وفاة قائدهاﷺ، فحصلت سلسلة من الأحداث السياسيّة - كمسألة السقيفة - أدّت إلى حصول التباس في فهم هذا المبدأ، روّج لـه من لا يروق له هذا الأصل الإسلامي الأصيل، فحاول تحريف مبدأ المودّة الظاهر في هذه النصوص والمواقف والآيات الكريمة، ومن ثم تفسيره بما لا يتنافى مع الأغراض السياسية.

وقد فسّر هذا المبدأ الإسلامي بلزوم محبة أهل البيت والمودّة إليهم، أي ليس ثمة ما يثبت ما هو أكثر من المحبّة، فالمسلم لابد من أن يكنّ لهم المحبة والاحترام والتقدير والود، باعتبار ذلك علاقة عاطفية وإنسانية، بوصفهم صالحين ومن أولياء الله المقرّبين منه.

وقد تعدّى هذا المنهج في تفسير الوقائع آية المودّة ليطال حديث الغدير مما ورد في شخص الإمام عليؑ أو مجموع آل الرسول كحديث الكساء. وبهذا تم الفصل بين مبدأ محبة آل الرسولﷺ وبين أن تكون لهم منـزلة اجتماعية معينة ودور قيادي في التجربة الإسلامية شبهَ المحاولة الاستعمارية الحديثة القاضية بفصل الدين عن السياسة، كي يتمكّنوا من عزل العلماء والفقهاء والمتديّنين بمختلف أشكالهم ورتبهم عن الحياة السياسية والساحة القيادية للأمة[٩]، وهو ما قضت عليه تجربة الثورة الإسلامية في إيران على يد الإمام الراحل الخميني‌ﷺ.

وبهذا أحيلت مسألة الحكم والخلافة إلى المسلمين أنفسهم، لاتخاذ الموقف المناسب فيها.

ومن الواضح أن هذا التفسير لا يمكن مساندته وقبوله؛ وذلك:

أولاً: إنه على خلاف صراحة الأدلة والروايات والآية المباركة التي نبحث فيها فعلاً، بل وعلى خلاف ظهورها أيضاً، وهذا بحث قديم بين السنة والشيعة صنّفت فيه الكتب المطوّلة وأفيض فيه الحديث عن معنى الولي والمولى في حديث: "من كنت مولاه فهذا علي مولاه"[١٠] وغيره...

والذي نفهمه هو أن هذا المبدأ لا يراد منه مجرّد التولّي القلبي والمحبة والمودَّة بين الناس وبين هؤلاء، إذ لا يمكننا فهم هذا الاهتمام النبوي والقرآني كلّه بمثل هذه المبادئ المتصلة بأهل البيت : على أنها مجرّد إرشادات روحية تتصل بعناصر المحبة القلبية وأمثالها، إن مدح النبي ﷺ للحسن والحسين عليهما السلام وهما في دور الطفولة، مدحاً مميزاً يؤكّد ما نقوله[١١]، وتكفينا قصّة صلاة النبي ﷺ ومراعاته أثناءها لهما شاهداً على ما نقول.

كيف يمكن أن يفترض أن مضموناً بهذه البساطة يتصدّى الذكر الحكيم لتثبيته ويتصدّى النبي ﷺ ليلاً ونهاراً، وفي كل مناسبة وفرصة، لتركيزه في نفوس المسلمين؟بل كيف يمكن لهذه الشخصية العظيمة الخالدة - محمد ﷺ - التي لا نظير لها بقطع النظر عن الجانب الرباني وعن ارتباطها بالسماء لو أردنا أن ننظر إليها نظرة علمية كما ينظر المادّيون... كيف يمكن لهذه الشخصية أن تؤكّد بإصدار عشرات بل مئات البيانات والنصوص والأحاديث على هذه الفكرة من أجل عرض هذا المفهوم المحدود والساذج.

إن طبيعة المضمون تستدعي درجةً من التركيز، فالمضمون المهم والبالغ الحساسية يحتاج إلى حجم كبير من البيانات والنصوص لترسيخه في الوعي العام في المجتمع، كما أن المفهوم الذي يراد له أن يكون بديلاً عن مفهوم آخر مسيطر سيطرةً تامة على المجتمع يجب أن تنهال النصوص في غير فرصة ومناسبة لتكريسه بغية الحدّ من المفهوم الآخر، أما المفاهيم البسيطة فتحتاج تلقائياً إلى درجة أقلّ من ذلك نسبياً، وهذه حقيقة يلمسها الإنسان المنصف ويدركها بذهنه السليم وعقله المستقيم.

المعطى الثالث: إن هذا المبدأ - مبدأ مودّة القربى - يريد أن يعلّم المسلمين أنهم أصحاب امتياز ربّاني من الله تعالى صاحب الرسالة، فهم ثقل صاحب الرسالة في الأرض كالنبي ﷺ، وهم الذين بهم يفتح الله وبهم يختم، فالنبي ﷺ لم يكن ينظر إلى جانب الخلافة والسياسة فحسب، ولم يكن يريد شرح نظرية الحكم السياسية في الإسلام فحسب، فإن هذه النظرية قطرة من بحر الولاية، وجزء ضئيل منها.

أنا أريد أن أدّعي أن هذا المبدأ أوسع وأشمل من هذا المقدار، والتأكيدات الواردة عن

النبي ﷺ في كل مناسبة، تريد أن تثبت حقيقة أخرى أهمّ من مسألة الحكم والحاكمية وأشمل، وليست مسألة الحاكمية إلاّ جزء ضئيل من تلك الحقيقة، تلك الحقيقة هي أن هؤلاء لهم تميّز روحاني عن الآخرين، وهم ثقل الله في الأرض، وهم المرتبطون بالسماء، ولهذا لابد من أن يكون هناك تودّد إليهم ومحبة لهم، فهؤلاء هم رموز السماء في الأرض. وهذا الودّ والحب والولاء ليس من باب إنساني وشخصي بل هو جزء من أصل الرسالة، إنه ولاء للرسالة ولله تعالى، ومن خلال هذا الولاء تتصل السماء بالأرض، ويتمكّن الناس من عبادة الله حقاً والالتزام بأوامره على أكمل وجه، فهذا التأكيد إنما كان لأن هذه المحبة في جوهرها وواقعها سوف تؤول إلى حبّ الإنسان لله تعالى وأحكامه ورسالته وأنظمته وما يريده من عباده.

وبهذا يتأكّد لنا أن المعطيات التي تقدّمها الآية الكريمة تبدأ بمفهوم الإمامة ونظرية الخلافة، لتمتدّ إلى ناحية المحبّة ومدّ الجسور العاطفية معهم، ولتبلغ - من ثم - مبلغاً سامياً في التأكيد على عنصر الواسطة بين الحقّ والخلق والمتجسّد فيهم.

موقع الرموز البشرية في التّربية الربّانية

إنّنا نؤمن، في معتقدنا الفلسفي، بأن الله حينما خلق الإنسان والسماء والأرض لم يترك خلقَه سدى، بل بقي مشرفاً ومهيمناً ومتصرّفاً في أمورهم من خلال ما يسمّى بخطّ الشهادة، فخط الشهادة هو ارتباطٌ بين السماء والأرض.

هذا الارتباط لابد من أن تكون لـه رموز، إذ لا يمكن الارتباط بعالم الغيب ارتباطاً مجرّداً، صحيح أن الإنسان يدرك بعقله المجرّد بعض القضايا، إلاّ أنّه حتّي بحسب نزعته أكثر من كونه مجرداً، هذه الحسيّة تجعل البشرية بحاجة دائماً إلى رموز تمثّل تجسيداً بشرياً مادياً للعلاقة، ولذا جعل سبحانه الأنبياء من البشر، وهو ما تؤكّده أيضاً آيات قرآنية كثيرة.

وعليه، يكون التركيز على مبدأ المحبة بغية التفات قلوب الناس بالتدريج لهذه الرموز من بعد النبيّ ﷺ والتفافها حولها، فبالنسبة للنبيّ ﷺ الرمزية واضحة لكونه صاحب الرسالة وصاحب المعجزة الكبرى، أما بعده فلابد من أن يبقى هذا الحبل الممدود بين السماء والأرض، وذلك عبر آل الرسول ﷺ، ولولا هذا البعد في القضية لما كان جديراً بأن يكون موضع اهتمام النبي ﷺ والذكر الحكيم.

ثمة وجه آخر هنا، وهو أن الإنسان يدرك الأشياء بفكره وعقله، إلاّ أنه لا يقدر على بعث

الحركية في فكره ومعتقده إذا بقي أسيراً للفكرة والمعتقد فحسب، بل إن ما يحرّك الإنسان نزولـه من عالم التجرد الذهني والعقلي إلى عالم الحبّ القلبي، إلى عالم الرغبة النفسية، ولهذا نجد أنّ الفلاسفة لم يتمكّنوا من تحريك البشرية كما حرّكها الأنبياء، فالأنبياء صنعوا حضارات وأمماً إلاّ أن الفلاسفة بنظرياتهم واصطلاحاتهم وفلسفاتهم لم يستطيعوا ذلك ولا يستطيعون.

لقد كانت لأرسطو كلمات فلسفية واستدلالات ومناقشات علمية تدور حول فكرة الله، إلاّ أنها لم تغيّر في تاريخ الإنسانية شيئاً، بل حتى حضارة الإغريق نفسها لم تكن وليدة النظريات الفلسفية، وإنما كانت لها امتدادات أخرى يرجع كثير منها إلى الديانات اليهودية والمسيحية بعد انتقالها من الشرق إلى أوروبا واليونان.

وعليه، فالفكر المجرّد لا يستطيع البعث والتحريك، إلاّ إذا أنزل إلى قلب الإنسان ليتحوّل من مجرّد فكر نظري إلى رغبةٍ وميلٍ وعاطفة، إلى معتقد وعقيدة.

هذه النظرة التي استخلصناها من هذا المبدأ المتّصل بأهل البيت، لو أنها طرحت من قِبَل الإسلام بوصفها نظرية بحتة، وجملاً خبرية صرفة، من دون ربط الناس عاطفياً بأهل البيت، لبقيت نظرية شبيهةً بنظريات الفلاسفة، ولهذا دخل الإسلام عبر مبدأ الحب والود حتى يصبح هذا المبدأ متركّزاً في القلوب لا في الأذهان فحسب، فلو بقي في أذهان الأمة نظرية كنظريات الفلاسفة حول العقل الأول والثاني والعقول العشرة و.. الوسائط بين الخالق والخلق لكنت لا تجد لـه موطناً إلاّ في عقول الفلاسفة، وهذه الحقيقة التي تمزج العقل بالقلب نجدها جليةً في تجربة الثورة الإسلامية، وحكومتها الدينية، فكم كان لحبّ الإمام الخميني‌ﷺ والتعلّق العاطفي الكبير به من تأثير على الجماهير قبل الثورة وبعدها، وفي جميع المجالات والجبهات، وهذا الحب والولاء ليسا سوى امتداد لحبّ أهل البيت وولايتهم.

وهذا هو ما يفسّر لنا تأكيد النصوص الكثيرة على محبة آل البيت وليس الاعتراف بمنـزلتهم والإيمان بعصمتهم فحسب.

مبدأ المودّة لأهل البيت هدف ووسيلة

إذا أردنا أن نتعمّق في هذه المحبة والمودّة لأهل البيت، لوجدناها هدفاً إسلامياً رسالياً، وفي الوقت نفسه نجدها، أيضاً، طريقةً ووسيلةً للوصول إلى الأهداف الإسلامية الكبرى، فمحبة آل البيت مبدأ ذو وجهين، هدفٌ وغايةٌ من جهة، وطريق ووسيلة من جهة أخرى.

أما كونها هدفاً، فباعتبار ما أشرنا إليه من أنها كمودّة الرسول ﷺ نفسه، مودةٌ هي بالنتيجة لله وفي الله سبحانه، لأن الرسول وأهل بيته المعصومين ما هم إلاّ ممثلين من قبل الله، فحبهم في الواقع لما يرمزون إليه من حب لله سبحانه وتعالى، ويوجد في الآيات والروايات أن حبّ جبرائيل وميكائيل وحب الروح الأمين معيار لتشخيص المؤمن من الكافر(١٢)، وهذه حقيقة واقعة في الذات الإنسانية، فالإنسان إذا أحبّ أحداً أو شيئاً أحبّ جميع المتعلّقات به، فكيف بمن يمثّل المحبوب؟ وبمن يكون واسطة له؟ إذن ، فحب آل البيت بنفسه كمال، لأنه يؤول إلى حبّ الله سبحانه.

وهذا معناه أنه ليس من الصحيح اعتبار حب أهل البيت هدفاً في نفسه فحسب، بحيث نجرّده عن كونه سبيلاً لهدف آخر، كما ليس من الصحيح اعتبار هذا الحب وسيلةً فحسب، بحيث لا نعطيه في حدّ ذاته أية موضوعية أو خصوصية.

منهج الأنبياء في تربية الإنسان

إن مدرسة الأنبياء التربوية ومنهاج التربية الإسلامية يختلفان عن مدرسة الفلاسفة والمفكّرين والمنظّرين، فمدرسة الأنبياء مدرسةٌ تتعامل مع الجانب الإنساني والروحي ومع عواطف البشر وقلوبهم، ولا تتعامل فقط مع الأفكار المجرّدة والنظرّية فحسب، لأنّ هذا الجانب هو المميز للإنسان عن المخلوقات الأخرى، وهو ما نسميّه مدركات العقل العملي المتعلقة بالوجدان والفطرة البشرية، ففي الحيوان نستطيع أن نتصوّر شيئاً يشبه الإدراك، يقال: النمل عندما يؤسّس بيته، لـه دقّة هندسية ربما لا يستطيع كبار المهندسين إتقانها، وهذا ما قد نعدّه مرتبة شبيهة بمراتب الإدراك، إلاّ أن الجانب المتميّز في الإنسان إنما هو ذاك الذي نعبّر عنه بالقلب والعواطف والروح.

مدرسة الأنبياء تركّز، في تربيتها، على هذا الجانب أكثر، ولهذا نجد القرآن الكريم دائماً في وصفه للعلاقة بين المؤمنين بالرسالة الإسلامية وبين الله يستعمل لفظ القلب ﴿**إن الله يحب المحسنين**﴾[المائدة/١٣]،﴿**إنه هو البرّ الرحيم**﴾[الطور/٢٨]، ﴿**فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ الله**﴾[آل عمران/٢١]، ﴿**وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ**﴾[البروج/١٤] والبر من القضايا المتعلّقة بجانب العواطف والقلب... والآيات التي تصف الله وتشرح سنخ العلاقة والعناية الإلهية بالبشر نجدها تؤكّد دوماً على مقولات تنتمي لعالم القلب والفؤاد والروح، لا عالم المصطلحات البشرية والأفكار المجرّدة

لماذا؟

لأن هذه المدرسة تريد أن تربي الإنسان وتكمل إنسانيته وكمالاته، فالإنسان من خلال هذا الجانب يستطيع أن يتكامل وينطلق إلى الخيرات، وإلى التحلّي بالصفات الأخلاقية والوجدانية الحميدة، وهي جميعاً تصدر من القلب لا من العقل.

وعليه، فإذا كانت هذه هي طبيعة المدرسة الإلهية وطبيعة تربية الأنبياء : للبشرية، فمن الطبيعي لنا أن نفهم كيف أن محبة أهل البيت والمودة والقربى لآل الرسول ﷺ كانت مقولات نافذة في هذه الخريطة وهذه التربية.

لماذا يكمُلُ الإنسان عن طريق هذا الحب؟

لأن الكمال الحقيقي للإنسان يكون باقترابه من الكمال المطلق، وهو الله، وباب هذا الاقتراب هو القلب لا الذهن وحده، لأن الإنسان قد يدرك وجود الله، ولكن لا يتكامل ذلك عنده، لأن إدراكه لم ينـزل من عالمه المجرّد.

إن المودة الحقيقية إنما تكون إذا صدرت من القلب، ومؤشر ذلك عادةً هو التشبّه بصفات المحبوب، فالحب الحقيقي لا يغفل المحب فيه عن محبوبه، أي عن التشبّه بهذا المحبوب، إنّه يحب أن يكون مثله وأن يماثله في تصرفاته وسلوكياته، فقد يكون كثير من الناس أدعياء المودة والمحبة، ولكن أعمالهم لا تشير إلى هذا الشيء، فلا تقولوا: إذا كان الباب هو المحبة والمودة فكيف تصدر عن الموالين والمحبين معاص وآثام؟! إن هذا ضعف في درجة الحب، ولك أن تقيس هذا الشيء على القضايا البشرية، فالّذي يحب ويعشق محبوباً في الحياة عادة لا ينفك عن التوجّه إلى محبوبه والاتصال به.

إذن، فحب آل البيت هدف بنفسه وغاية، لأنه مظهر من مظاهر الحبّ لله، والحب في الله، وهذا هو الكمال الحقيقي في الإنسان بأن يحب الكامل وهو الله، هذا هو حب الكمال وحب الكاملين.

إن محبة أهل البيت تضمن استمرارية الرسالة، وبهذا تحفظ من أي تحريفٍ أو خطأ، كما وقع فيه من لم يجعل حبه لهم فاحتار وتاه وانتهى به الأمر إلى مذاهب ضالّة مضلّة، فعن طريق هذا الحب تصان الرسالة، وتحفظ الشريعة الإسلامية كاملةً مكمّلة.

إقامة العدل في الأرض بحاجة إلى رسالة صحيحة وقدوة صالحة

تحتاج الإنسانية، في طلبها الدائم لإقامة أحكام الله في الأرض، إلى عنصرين:

العنصر الأول: الرسالة الصحيحة، أو ما يعبر عنه اليوم بالأيديولوجية الكاملة وغير المحرّفة والمشوّهة، ويمثّل هذه الرسالة في الدين الإسلامي القرآن الكريم نفسه، وهو كتاب مصون عن التحريف والتزييف بأي شكل من الأشكال زيادة أو نقصاناً كما حقّقه العلماء الأعلام.

والعنصر الثاني: سلامة من يريد أن يطبّق هذه الرسالة، ومن يتحمّل أحكام الرسالة وتحكيمها في الأرض، وهذه ليست بأقل أهمية وخطورة من سلامة أصل الرسالة، بل كثيراً ما تتداخل مع العنصر الأول.

إذاً، فَقْدُ العنصر الثاني يسبّب فقدان الأول أيضاً، فتحرّف الرسالة كما حرّفت الرسالات الصحيحة كثيراً على مرّ العصور، ولهذا تجد في حديث الثقلين أن العترة والرسالة لا ينفكان، فهما ثقلان لا ينفك أحدهما عن الآخر حتى يردا على النبيﷺ الحوض، وفي الواقع أحدهما يحمي الآخر، وإذا كان القرآن الكريم يعبّر عن العنصر الأول فلأنه يعرض الشريعة السماوية بشكل كامل، والعِدْل الآخر هو الأئمة: فبالإضافة إلى دورهم في شرح الشريعة الإسلامية المثبتة في القرآن وتفسيرها وإيضاحها، لهم دور تحكيم الشريعة وإقامة حكم الله في الأرض، وهذا الدور إن لم يكن أهمّ فلن يقل أهميةً عن الأول، بل يحفظه ويصونه ويجسّده، إذن فنحن بحاجة إلى من يحفظ بقاء الرسالة ويقوم بتطبيقها تطبيقاً سليماً في الأرض، وهذا الدور هو ما يقوم به الأئمة.

عندما نطالع أعمال بني أمية، نجد أن ما قامت به هذه الفئة الباغية، لم تقم به أية فئة من الطواغيت في أي زمان، فكم بذل معاوية من الأموال في سبيل تشويه جميع الأمور الواردة في حق عليعليه السلام وبأشكال مختلفة من العمل والأداء، وحرّف الروايات الواردة عن الصحابة، والتابعين، لقد استطاع أن يشتري الضمائر من الذين كانوا يُعدُّون مرموقين لكي يضعوا الأحاديث إما في ذمّ الإمام عليعليه السلام أو في تثبيت نظائرها في الآخرين، وقد بذل الكثير من الأموال الطائلة في استمالة كلّ من كان يمكنه استمالته من شيعة الإمام عليعليه السلام. هذا المدّ المنحرف الهدّام الذي أوجدته الفئة الباغية لو لم يقابله النبيﷺ منذ البداية بالأحاديث والتأكيدات على حبّ آل البيت وأنهم ثقل الله وعِدْل القرآن... وأيضاً المواقف التي وقفها الأئمة أنفسهم في صون الرسالة والذبّ عنها ورفع هذه التحريفات... لولا هذه المواجهة لوقعت المصيبة وكانت الرسالة قد مسخت حقاً.

في الواقع، من المسائل التي تستأثر باهتمام الإنسان في مقام استعراض التاريخ ومسيرة الأئمة نجد هذه النقطة وهي: إن الأئمة استطاعوا ليس فقط أن يحفظوا خطّ الإسلام الصحيح

المتمثّل في التشيع بل حتّى الخط العام الإسلامي عندما صار ما صار من الاتجاهات والتيارات والمشاكل نتيجة أعمال هؤلاء المنحرفين والبلبلة التي زعزعت الوضع العام للمسلمين وأوجبت التشويش في ذهنية المسلمين ومعتقدات الإسلام الأولية، استطاعوا أن يحفظوا سمعتهم ومنـزلتهم حتى على صعيد الخط العام، ويحفظوا بذلك ما يمكن حفظه من أصول الرسالة الإسلامية على المستوى العام، ولهذا نجد أن الأئمة يمتازون بدرجة من القدسية حتى عند غير أصحابهم، إذ لا يوجد شخص عند المسلمين يشكّك في مقام الأئمة، بوصفهم علماء أو ذرية لرسول الله ﷺ وكأكرم وكأفضل الناس حتى الأعداء، حتى بني أمية لم يستطيعوا أن يشكّكوا الأمة فيهم رغم كلّ ما بذلوه، وهذا معناه أنهم: استطاعوا القيام بدور دقيق وخطير، بحيث استطاعوا أن يحفظوا دورهم حتى في التأثير على الأعداء وعلى الساحة، حتى الفقه السنّي أو كتب السنّة الآن نجد فيها تشابهاً كبيراً وفي دائرة واسعة مع ما هو موجود في الفكر الشيعي، وهذا من نتاج عمل الأئمة.

هذا الحفظ في كتب أبناء العامة وهذا المقدار المحفوظ من الإسلام هو مقدار معتدّ به خصوصاً في الفروع والتشريعات والأحكام الإسلامية والقضايا الإسلامية العامة غير ما يرتبط بالخلافة والقيادة، وهذه المسائل المحفوظة في الواقع حفظها الأئمة في هذا المجال بجهودهم ودقة عملهم وسياساتهم التي استطاعت أن تجعلهم مقياساً للحق والباطل حتى عند أولئك من حيث يشعرون أو لا يشعرون.

إن الأئمة، في كثير من الموارد، عندما يذكرون الحكم الشرعي يسندونه إلى النبي ﷺ فيقولون: عن أبي عن جدّي... عن رسول الله ﷺ والواقع أنهم لا يحتاجون إلى ذلك وهم يحدّثون زرارة بن أعين أو محمّد بن مسلم الطائفي أو يونس بن عبدالرحمن أو محمد بن أبي عمير و... ولكن مع ذلك لا يكتفي الإمام عليه السلام بهذا المقدار بل يسنده إلى النبي ﷺ، لأنه لا ينظر إلى زرارة فحسب، بل ينظر إلى أبعد منه، لو كان يريد أن يحاكي زرارة فقط لكفاه شرح الحكم الشرعي له، وزرارة مؤمن به، بل هو يقصد التأثير حتى على الفقه السني، لأن أولئك يجدون رواية صدرت عن الإمام الصادق عليه السلام مسندةً إلى النبي ﷺ، فلا يمكن مناقشتها، لأن هؤلاء - أي أهل البيت - أناس معروفون لا يشكّ أحد في فضلهم وتقواهم ودينهم وعلمهم، والحديث المعروف بذات السلسلة الذهبية، حديث الإمام الرضا عليه السلام عندما قدم إلى مرو، وكان أكثر أهلها من السنة آنذاك، نجد أنه لا يبيّن الحديث من قبل نفسه، بل يسنده إلى أبيه عن جده عن رسول الله ﷺ ويصل به إلى الله جل شأنه.

هذه العنايات كانت من أجل أن يبقى للأئمة (عليهم السلام) دور حقيقي في حفظ ما يمكن حفظه، حتى في مجتمع أولئك الذين كانوا يعادون خط الأئمة بشكل أو آخر، والذين استعان بهم الطواغيت لغصب مقامهم وحقهم وغصب الخلافة منهم.

وحصيلة القول: إن مبدأ المحبة لأهل البيت، بالإضافة إلى خلفياته الفلسفية والعقديَّة، له آثار اجتماعية وتاريخية، وهي آثار قصدها النبي ﷺ عندما كان يؤكّد على محبة آل البيت (عليهم السلام).

* - - - - - * - - - - - *

الهوامش:

١ ـــ مجمع البيان في تفسير القرآن، أبو علي الطبرسي، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ ج٩: ٤٣.

٢ ـــ المصدر نفسه.

٣ ـــ لسان العرب، ابن منظور، مؤسسة التاريخ الإسلامي ودار إحياء التراث العربي، ج١١: ٨٤.

٤ ـــ مجمع البيان، مصدر سابق، ج٩: ٣١.

٥ ـــ انظر بعض هذه النصوص في تفسير الصافي، الفيض الكاشاني، دار الكتب الإسلامية، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ ج٦: ٣٦٤ ـ ٣٦٧، وانظر الميزان للعلامة الطباطبائي، ج١٨: ٤٦ و٥١ ـ ٥٢.

٦ ـــ الميزان في تفسير القرآن، ج١٨: ٥٢.

٧ ـــ انظر نفس الرحمان في فضائل سلمان، المحدّث حسين النوري، نشر الرسول المصطفى ﷺ، قم، الباب الثاني ص٢٨ ـــ ٣٦.

٨ ـــ راجع مثالاً على ذلك: العلامة الحلّي في نهج الحق وكشف الصدق، مؤسسة دار الهجرة، إيران، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ ص١٧٥.

٩ ـــ راجع الكتب العقدِّية التي عالجت موضوع حديث الغدير، مثل منهاج السنّة، ودلائل الصدق وغيرها، ولاحظ المجلّد الأوّل من الغدير للعلامة الأميني.

١٠ ـــ راجع على سبيل المثال، الذخيرة، السيد المرتضى، مؤسسة النشر التابعة لجماعة المدرسين، قم، ١٤١١هـ ص٤٣٨ ـ ٤٣٩.

١١ ـــ انظر ذخائر العقبى: ١٢٤، وخصائص النسائي: ٣٧، ومسند الإمام زيد: ٤٦٩، وكنز العمّال ٧: ١٠٩، وصحيح الترمذي ٢: ٣٠٦، وفيض القدير ١: ١٤٨ و...

١٢ ـــ راجع: الصافي، مصدر سابق، ج١: ٢٤٧ ـــ ٢٥٠.